مكتبتنا العربية

الأستاذ

مجلة

تُصْدِرُهَا كُلِّيَّة التَّرْبِيَة بِجَامِعَة بَغْدَاد

المجلد الثامن

بعددين

١٣٧٩هـ / ١٩٦٠م

مطبعة المعارف ـ بغداد

حقيقة التضمين في علوم العربية

الدكتور ابراهيم السامرائى
الاستاذ المساعد بكلية الآداب

ان اصطلاح « التضمين » يدل على دلالات متباينة بحسب المادة التى استعمل فيها ، واستفادت منه • نراه فى كتب البلاغة فى « باب التضمين والاقتباس » ، وهو فى مادة « العروض » فى باب « عيوب القوافى » كما انه يدخل فى أبواب من النحو مثل « باب حروف الجر » و « المتعدى واللازم » • ومن أجل ذلك فالباحث فيه ازاء موضوع واسع الاطراف ، كثير المسالك ، ولكننا اجتهدنا أن نفيه حقه ملتزمين بالايجاز فى عرض الوجوه المهمة ولا سيما ما يتعلق منها بالمسائل اللغوية والنحوية ، ولاجل الوصول الى هذا الغرض رأينا ان نقسمه الى قسمين :

(١) قسم يعرض لمدلول هذا الاصطلاح فى علمى البلاغة والعروض ، وهو قسم موجز نبين فيه مدلول الاصطلاح ، ثم نربط بين المدلول ومسألة التجديد والتقليد فى الادب •

(٢) وقسم نعرض فيه لمدلول هذا الاصطلاح فى النحو واللغة ، وهذا القسم هو الجانب المهم فى هذا البحث • ويكشف هذا الجانب عن قضية ارتباك مدلولات الالفاظ فى النصوص ، وعن محاولة علماء العربية لتبرير هذا الارتباك بوسائلهم المنطقية المعروفة •

(١) التضمين فى علمى البلاغة والعروض

يلمح الباحث فى الادب العربى ظاهرة التقليد ، ولا يحتاج الامر الى دليل فى هذا ، فظواهر التقليد واضحة فى مختلف العصور الادبية ، وهى تتخذ أشكالا

مكتبتنا العربية

عدة لا نرى حاجة فى تبيانهـا • والتضمـين الذى نواجهـه فى « باب الاقتباس والتضمين » من هذه الاشكال التقليدية • وملاك هذا التضمين البلاغى كما يقرر ابن رشيق فى عمدته[1] : « هو قصدك الى البيت من الشعر أو القسيم فتأتى به فى آخر شعرك ، أو فى وسطه كالمتمثل ، نحو قول محمود بن الحسين كشاجم الكاتب :

يا خاضب الشيب والايام تظهره ... هذا شباب لعمر الله مصنوع
اذكرتنى قول ذى لب وتجربةٍ ... فى مثله لك تأديب وتقريـع
ان الجديد اذا ما زيد فى خَلَقٍ ... تبين الناس أن الثوب مرقوع

فهـذا جيد فى بابه ، وأجـود منه أن لو لم يكن بين البيت الاول والآخر واسطة ، لان الشاعر قد دلّ بذلك على أنه متهم بالسَرَق ، أو على أن هذا البيت غير مشهور ، وليس كذلك ، بل هو كالشمس اشتهارا ، ولو اسقط البيت الاوسط لكان تضمينا عجيبا ، لان ذكر الثوب قد اخرج الثانى من باب الاول الا فى المعنى ، وهـذا عند الحذّاق أفضـل التضمين ، فانمـا احتذى كشاجم قول ابن المعتز فى أبيات له :

ولا ذنب لى ان ساء ظنّك بعدما ... وفيتُ لكم ، ربىَ بذلك عالم
وهـا أنـا ذا مسـتعتب متنصلٌ ... كما قال عباسٌ وأنفىَ راغِمُ

وأبيات العباس بن الاحنف التى منها البيت المضمن هى قوله :

وصبٍّ أصاب الحُبُّ سوداءَ قلبه ... فأنحله ، والحبُّ داء مـلازم
فقلت لـه اذ مات وجـداً بحبّه ... مقالة نُصحٍ جانبتها المآثم:
تحمَّلْ عظيم الذنب ممن تحبُّه ... وان كنت مظلوماً فقل: أنا ظالم

---

(١) ابن رشيق العمدة ٢/٨٤

مكتبتنا العربية

فانك ان لم تحمل الذنب فى الهوى يفارقك من تهوى وأنفك راغم[1]

فنحن نرى فى هاتين المقطوعتين أن ابن المعتز لم يكتف بتضمين بيت العباس وحده ، وانما استوحى روح المقطوعة وقسما من ألفاظها ، وذلك يدل على ما كان فيه الشعراء من التتبع لاشعار غيرهم .

وعلى هذا فلا يمكن أن يكون التضمين الا لونا من ألوان التقليد ، ولا نظن ان الشاعر المبتكر يستعين بهذه الوسيلة فى فنه ، ومن أجل ذلك يذكر ابن رشيق مفهوما آخر للتضمين يعتبره أجود مما ذهب اليه حيث يقول[2] :

« وأجود منه أن يصرف الشاعر المضمَّن عن معنى قائله الى معناه ، نحو قول بعض المحدثين ، ونسبه قوم الى ابن الرومى :

يا سائل عن خالدٍ عهدى به رطب العِجان وكفه كالجلمد
كالاقحوان غداة غبَّ سمائه جفَّت أعاليه وأسفله نَدِى

وابن الرومى ، أو الشاعر الآخر المحدث قد صرف ـ كما يقول ابن رشيق ـ قول النابغة فى صفة الثغر :

تجلو بقادمتى حمامة أيكةٍ بَرَداً أُسِفَّ لثاتِه بالاثمدِ
كالاقحوان غداة غبَّ سمائه جفت أعاليه وأسفله ندى

الى معناه الذى أراد .

ولست أدرى ما وجه الجودة فى هذا الصرف الذى تفضحه العبارات المتشابهة !! وليس هذا الا التقليد الذى عبّر عنه ابن رشيق بعبارته الفنية المذكورة .

وليس أدل على التقليد الفاضح من الشعراء الذين يضمنون قسيما كما فعل الصولى :

---

(١) المصدر السابق
(٢) المصدر السابق

مكتبتنا العربية

خلقـــت عـــلى بـاب الأمـــير كأنني

« قفا نبك من ذكرى حبيبٍ ومنزلِ »

اذا جئت أشـــكو طول ضيقٍ وفاقةٍ

« يقولون : لا تَهلِك أسىً وتجمل »

ففاضت دموع العـين من ســوءردِّهم

« على النحر حتى بلَّ دمعى محملى »

لقـد طـال ترادى وقصـدى اليـكم

« فهل عند رسم دارسٍ من مُعَوَّلِ »

والشاعر فى تضمينه هذا ، والذى لا يدل الا على التقليد والتتبع الواضح ، قلَّ أن يناسب بين ماله وما أخذه •

وهناك ركن آخر من أركان هذا التضمين ، وهو أن يقلب الناظم بيتا فيضمنه معكوسا ، نحو قول العباس بن الوليد بن عبدالملك بن مروان لمسلمة بن عبدالملك :

لقـد انكرتنى انكـارَ خوفٍ يضم حشاك عن شتمى وذحلى

كقول المرء عمرو فى القوافى لقيس حين خالف كل عـذلِ

«عذيرك من خليلك من مُراد أريـد حياتـه ويريـد قتـلى »

والبيت المضمّن لعمرو بن معدى كرب الزبيدى ، يقوله لابن اخته قيس بن زهيربن هبيرة بن مكشوح المرادى، وكان بينهما بعد شديد وعداوة عظيمة، وحقيقته فى شعر عمرو :

أريـد حيـاته ويريـد قتـلى عذيرك من خليلك من مُرادِ (١)

وابن رشيق فى العمدة يفصل فى التضمين فيذكر منه اشكالا عدة ، وهى فى مجموعها تدل عـلى التقليد والمحاكاة • ونحن نجتزىء بهـذا القدر من الامثلة ،

---

(١) المصدر السابق

مكتبتنا العربية

والذى ذكرناه يعطى صورة موجزة عن التضمين فى باب الاخذ والاستعانة بآثار الآخرين • ولم يلجأ كثيرا الى هذه الوسيلة ، الا الشعراء المتخلفون الذين حرموا الابتكار والتجويد ، على أن على بن عيسى الرمانى يعد التضمين بابا من أبواب البلاغة التى تنحصر عنده فى عشرة ، غير أن مفهوم التضمين عنده مفهوم كلامى محض كما يعبر عنه بقوله(١) :

« تضمين الكلام هو حصول معنى فيه من غير ذكر له باسم او صفة هى عبارة عنه •والتضمين على وجهين : أحدهما ما كان يدل عليه الكلام دلالة الاخبار ، والآخر ما يدل عليه دلالة القياس • فالاول كذكرك الشىء بأنه مُحدَث ، فهذا يدل على المحدِث دلالة الاخبار ، والتضمين فى الصفتين جميعا ، الا أنه على الوجه الذى بيَّنّا • وكذلك سبيل المكسور ومنكسر ، وساقط ، ومسقط •

• • • • • • • • • • • • • • • • • • •

واما التضمين الذى يدل عليه دلالة القياس فهو ايجاز فى كلام الله عز وجل خاصة ، لانه تعالى لا يذهب عليه وجه من وجوه الدلالة ، فنصبه لها يوجب أن يكون قد دل عليها فى كل وجه يصح أن يدل عليه • وليس كذلك سبيل غيره من المتكلمين بتلك العبارة ، لانه قد تذهب اليه دلالتها من جهة القياس ولا يخرجه ذلك عن أن يكون قد قصد بها الابانة عما وضعت له فى اللغة من غير أن يلحقه فساد فى العبارة • وكل آية فلا تخلو من تضمين لم يذكر باسم او صفة ، فمن ذلك : « بسم الله الرحمن الرحيم » قد تضمن التعليم لاستفتاح الامور على التبرك به والتعظيم لله بذكره ، وانه أدب من آداب الدين وشعار للمسلمين ، وأنه اقرار بالعبودية واعتراف بالنعمة التى هى من أجل نعمة ، وأنه ملجأ الخائف ومعتمد للمستنجع » •

وواضح من هذين القسمين أن « الرمّانى » اعتمد على منهج كلامى فى

---

(١) النكت فى أعجاز القرآن ٩٤ فى كتاب «ثلاث رسائل في اعجاز القرآن» •

ذهابه الى أن المفعول متضمن معنى كفل ، والعكبري نصه على أن الآية تتضمن معانى اخرى وأنه بينها فى كتابه « الجامع لعلم القرآن » كما ذكر فى آخر هذا الفصل .

أما مدلول الاصلاح فى « العروض » فهو يستند على ما قرره العروضيون فى أن البيت فى القصيدة انما هو شعر قائم بنفسه ، وأن من عيوب القافية عندهم أن البيت لا يتم معناه الا بالذى يليه، ويسمون هذه الظاهرة فى القوافى تضمينا(١) . ويتفق أغلب المعنيين بالقوافى ، على أن هذا عيب من عيوب القوافى وينشدون على هذا قول الشاعر :

وليس المال فاعلمْه بمال ... من الاقوام الا للذىّ
يريد به العلاء ويمتهنْه ... لاقرب أقربَيه وللقَصِىّ

فضمن بالموصول والصلة على شدة اتصال كل واحد منهما بصاحبه .

وينقل لنا صاحب التاج خلافا طويلا حول جواز التضمين فى القوافى أو عدمه ، والذى يعنينا من هذا ، هو أن هذه الظاهرة كثيرة فى الشعر العربى ، والشاعر مضطر الى هذا فى ظروف خاصة ، ما بقى ملتزما بالوزن والقافية .

التضمين فى اللغة والنحو :

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

عرضنا فى القسم الاول للتضمين فى البلاغة والعروض ، ونعرض الآن فى هذا الفصل الى القسم الثانى من البحث وهو التضمين فى اللغة والنحو . وفى الحق أن هذا القسم غير مستقل عن الاول من حيث بعده عن البلاغة واتصاله بالمباحث اللغوية والنحوية ، فقد امتدت اليه يد البلاغة ، فناقشت اصوله فى ضوء العقلية البلاغية التى شاعت فى المنهج اللغوى والنحوى، ومعلوم ان المنهج البلاغى يستدعى البحث فى النصوص الادبية عن الصور البيانية والقيم الجمالية .

ومعلوم ايضا ان الجانب النحوى واللغوى فى موضوع التضمين قد تعرض

---

(١) انظر مادة « ضمن » فى لسان العرب وتاج العروس .

مكتبتنا العربية

لسوآلات بلاغية ، كالاستفسار عن ما هيته ، أحقيقة هو أم مجاز ؟ وهل القيد فيه حال منتزعة من المنقول منه ؟ وما الى ذلك من الامور البلاغية المحضة •

ولكى نعطى فكرة واضحة عن هذا القسم ، رأينا أن نعرض لمواضع التضمين فى الاستعمال لنخلص الى تحديده وضبطه وتعريفه ، ثم نقرر أحقيقة هو أم مجاز؟ رغبة منا فى ان نصل بعد هذا الى أنه قياسيا يجوز ان يقاس على ما اشتهر استعماله، أو أنه سماعى لا ينقاس عليه •

التضمين فى الاستعمال :

لم يسلم منهج الباحثين فى علوم العربية من قيود المنطق وآثار الفلسفة • ذلك ان العقلية الفلسفية قد غزت سائر العلوم ، فقد استهوى منطق ارسطو وفلسفة الفلاسفة الآخرين الباحثين فى الثقافة العربية الاسلامية ، فتأثروا بهذا فى سائر علومهم • وكان من نتائج ذلك أن تأثر البحث اللغوى والنحوى بهذا المنهج الدخيل على النحو واللغة ، وكان تأثيره فى النحو واللغة سلبيا ، فقد احال كثيرا من الابواب اللغوية والنحوية مادة جامدة بعيدة عن الحياة ، وبعيدة عن طبيعة اللغة السهلة السمحة • ومن أجل هذا ظهرت فى علوم العربية قواعد واحكام لم تكن وليدة الاستقراء الشامل الواسع للغة ، كقولهم مثلا : ان الفعل « كذا » يأتى لازما ولا يأتى متعديا ، وان الحرف « كذا » يأتى لمعنى ولا يأتى لغيره وهكذا ، فاذا فطنوا ان هذا الفعل وذلك الحرف ، قد أتيا على غير ما ذكروا ، فزعوا الى طريقتهم ومنهجهم يؤولون ويعللون ، كأن يقدرون محذوفا ، او يحذفون ما هو مذكور • وليس هذا مجال عرض المشكلات اللغوية والنحوية التى افسدها المنهج المنطقى ، فهى كثيرة معروفة للباحثين •

وبحث التضمين الذى ندرسه يظهر اضطراب علماء العربية القائلين به ، فهناك نصوص تند عما وضعوه من احكام وقيود ، لم يجدوا الى حلها غير القول بالتضمين ولا بد للباحث فى علم الدلالات (Sémantique) بغية الافادة منه فى اللغة

مكتبتنا العربية

العربية ، أن يعانى صعوبة البحث اذا ما أراد أن يخلص للمنهج السليم ولا سيما فى عصورنا الحديثة .

فأول مجال للتضمين ، هو حروف المعانى ، او حروف الصفات على حد تعبير ابن قتيبة (١) .

(١) الحرف « فى » تضمن معنى « على » كقوله تعالى : « ولأصلبنكم فى جذوع النخل »(٢) أى على جذوع النخل . قال الشاعر :

وهم صلبوا العبدىَّ فى جذع نخلة فلا عطست شيبان الا بأجدعا

وقال عنترة :

بطل كأنّ ثيابه فى سرحةٍ يُحذى نعال السِّبت ليس بتوأمِ

أى على سرحة من طوله .

(٢) الحرف « الى » تضمن معنى « فى » ، كقول النابغة :

فلا تتركنى بالوعيد كأننى الى الناس مطلىٌّ به القار أجربُ

يريد فى الناس ، وقال طرفة بن العبد :

وان يلتق الحىُّ الجميع تلاقنى الى ذروة البيت الكريم المصمَّدِ

أى فى ذروة البيت الكريم الذى يُصمَد اليه ويقصد .

(٣) الحرف « على » تضمن معنى « عن » ، كقول القحيف العقيلىّ :

اذا رضيت علىَّ بنو قُشَير لَعمر الله أعجبنى رضاها (٣)

أى رضيت عنى .

(٤) حرف الباء تضمن معنى « عن » كقوله تعالى : « فاسأل به خبيرا » (٤)

أى عنه .

---

(١) ابن قتيبة ، تأويل مشكل القرآن ٤٢٦ ، أدب الكاتب ٥٠٢

(٢) سورة طه ٧١

(٣) السيوطى ، همع الهوامع ٢/٢٨

(٤) سورة الفرقان ٥٩

قال علقمة بن عبدة :

فـان تسألـونى بالنسـاء فـأننى بصـير بـأدواء النسـاء طبيـب

أى عن النساء •

وقال ابن أحمر :

تسـائل يـابن أحمـر مـن رآه أعـارت عينـه أم لـم تَعـارا

(٥) الحرف « عن » تضمن معنى « البـاء » كقوله تعـالى : « ولا تجهر له بالقول كجهر بعضكم لبعض »(١) أى لا تجهروا عليه بالقول ، والعرب تقول : سقط فلان لفيه ، أى على فيه • قال الاشعث بن قيس :

تنـاولت بالرمح الطـويل ثيابـه فخرَّ صريعـا لليديـن وللفـم

أى على اليدين والفم • وقال الطرماح بن حكيم :

كـأن مُخوّاهـا عـلى ثفناتـها مُعرّس خمس وقَّعَتْ للجناجِن

(٦) الحرف « الى » تضمن معنى « مع » كقوله تعالى : « ولا تأكلوا اموالهم الى أموالكم » (٢) أى : مع اموالكم وكقوله تعالى : « من أنصارى الى الله » (٣) أى مع الله • والعرب تقول : « الذود الى الذود ابل » أى : مع الذود •

قال ابن مفرِّغ :

شـدخت عـزة السـوابق منهـم فى وجوه الى اللمام الجعادِ (٤)

أى مع اللمام الجعاد •

(٧) حرف « الـلام » تضمن معنى « الى » كقولـه تعـالى : « بـأن ربك اوحى لها »(٥) ، أى أوحى اليها •

---

(١) سورة الحجرات ٢

(٢) سورة النساء ٢

(٣) سورة آل عمران ٥٢

(٤) ورواية اللسان الى الكمام الجعاد ، انظر مادة « شدخ » •

(٥) سورة الزلزلة ٥

مكتبتنا العربية

قال تعالى : « الحمد لله الذى هدانا لهـذا »[1] ، أى الى هذا ، كما قـال تعالى : « وهداه الى صراط مستقيم »[2] .

(٨) الحرف « عـلى » تضمن معنى « من » كقوله تعالى : « اذا اكتالوا عـلى الناس يستوفون »[3] أى مع الناس .

وقال صخر الغىّ :

متى ما تنكروهـا تعرفوهـا عـلى أقطارهـا علق نفيث

أى من أقطارها .

(٩) الحرف « من » تضمن معنى « الباء » ، كقوله تعالى : « يحفظونه من أمـر الله »[4] أى بأمر الله . وقال تعالى : « يلقى الروح من أمره » أى بأمره .

(١٠) حرف « الباء » تضمن معنى « من » ، كقول ابى ذؤيب الهذلى :

شربن بماء البحر ثم ترفّعَتْ متى لججٍ خضر لهن نئيج

وقال تعالى : « عينا يشرب بها المقربون »[5] ، أى منها .

نجتزى بهذه الشواهد فنتبين فيها أن النحويين وعلماء اللغة فى حيرة واضطراب ، فهم يرون حرفا قد استعمل فى مكان آخر ، ولا بد لهم أن يتخلصوا من هذه الحيرة وهذا الاضطراب بوسيلة من وسائلهم .

والبصريون يمنعون انابة الحروف الجارة عن بعض قياسا ، كما لا تنوب حروف الجزم والنصب بعضها عن بعض ، وما أوهم ذلك محمول على تضمين الفعل معنى فعل يتعدى بذلك الحرف او على شذوذ النيابة ، والكوفيون يجوزون

---

(١) سورة الاعراف ٤٣

(٢) سورة النمل ١٢١

(٣) سورة المطففين ٢

(٤) سورة الرعد ١١

(٥) سورة المطففين ٢٨

مكتبتنا العربية

نيابة بعضها عن بعض قياسا(١) ، وقد رجح ابن هشام مذهبهم فقال : ومذهبهم أقل تعسفا »(٢) .

ولقد اختلف البصريون والكوفيون فى هذا الباب اختلافا كبيرا ، واختلافهم يشير الى ان هؤلاء جميعا لم يستقرئوا كلام العرب استقراءً وافيا ليسجلوا هذه الاستعمالات وليقيدوها بقائليها ، وبالزمن الذى قيلت فيه ، مهمتين بموضوع اللغات الخاصة التى اجازت استعمالا دون آخر .

قال ابن الانبارى فى الانصاف : « ذهب الكوفيون الى أن (مِن) الجارة يجوز استعمالها فى الزمان والمكان ، وذهب البصريون الى أنه لا يجوز استعمالها فى الزمان ، اما الكوفيون فاحتجوا بأن قالوا : الدليل على أنه يجوز استعمال (من) فى الزمان أنه قد جاء ذلك فى كتاب الله تعالى وكلام العرب . قال الله تعالى : « لمسجد اسس على التقوى من اول يوم أحق أن تقوم فيه »(٣) وقال زهير :

لمن الديار بقنَّة الحجر ... اقوين من حججٍ ومن دهر

فدل على أنه جائز .

واما البصريون فاحتجوا بأن قالوا : أجمعنا على أن « من » فى المكان نظير « مذ » فى الزمان ، لان مِن وضعت لتدل على ابتداء الغاية فى المكان ، كما ان مذ قد وضعت لتدل على ابتداء الغاية فى الزمان ، ألا ترى انك تقول : ما رأيته مذ يوم الجمعة ، فيكون المعنى ان ابتداء الوقت الذى انقطعت فيه الرؤية يوم الجمعة ، كما تقول : ما سرت من بغداد ، فيكون المعنى : ما ابتدأت بالسير من هذا المكان . فكما لا يجوز أن تقول ما رأيته من يوم الجمعة ، كذلك لا يجوز أن يقول ما سرت مذ بغداد » .

---

(١) المخزومى ، مدرسة الكوفة ٣٢٦ .

(٢) ابن هشام ، المغنى حرف الباء ١٠٣

(٣) سورة التوبة ١٠٨

(٤) ابن الانبارى ، الانصاف فى مسائل الخلاف ٢٢٨

مكتبتنا العربية

وهذا الخلاف والجدل يظهر أن الكوفيين اسد رأيا وأصوب منهجا ، ذلك أنهم اعتمدوا استعمالات بنوا عليها رأيهم ، وهذا وجه علمي صائب .

اما البصريون فانهم تمسكوا بجدل وباسلوب منطقي واعتمدوا على استعمالات اصطنعوها هم انفسهم ولم يعتمدوا على امثلة مستقرأة في الثابت من النصوص والاستعمالات .

وقد استمر الكوفيون على مذهبهم في انابة كلمة عن اخرى ، فالفراء قد أجاز أن تقع « ليت » في موضع « تمنيت » ، وبهذا علل كون « ليت » أقوى ادوات النصب عنده ، وقد اجاز نصب المسند اليه والمسند بها مستشهدا بقول الشاعر :

يا ليت أيام الصبا رواجعا(١)

لانها شربت معنى تمنيت ، فاذا قيل : ليت زيدا قائما ، كان معناه : تمنيت قيام زيد وقد ورد من هذا قول الشاعر :

اذا اسود جنح الليل ولتأت ولتكن خطاك خفافا ان حراسنا اسدا

وقد جاء في الحديث : « ان قعر جهنم لسبعين خريفا » ، وقولهم ان زيداً أخانا(٢) . وقد أنابوا فعلا عن فعل آخر على سبيل التضمين ، وهو موضوع يكشف أن علماء العربية لم يتعقبوا الاستعمالات ويقيدوها كما اشرنا ، ومن أجل فان وجدوا شيئا خرج عما قرروه من قواعد وضوابط احتالوا عليه بوسيلة من وسائلهم ، ولذلك قالوا بالتضمين :

قال الزمخشري : « من شأنهم أن يضمنون الفعل معنى فعل آخر فيجرونه مجراه ويستعملونه استعماله مع ارادة معنى المتضمن . قال والغرض في التضمين اعطاء مجموع معنيين ، وذلك أقوى من اعطاء معنىً ، ألا ترى كيف رجع معنى

---

(١) معاني القرآن ــ ورقة ٤٥ عن مدرسة الكوفة ، السيوطي ، الهمع ١/١٣٤ .

(٢) السيوطي ، الهمع ١/١٣٤ ، شرح الرضي على الكافية ٢/٣٤٦ـ٣٤٧ .

مكتبتنا العربية

(ولا تعد عيناك عنهم)[1] الى قولك : ولا تقتحمهم عيناك مجاوزتين الى غيرهم ، وكذلك قوله تعالى (ولا تأكلوا اموالهم الى اموالكم)[2] أى لا تضموها اليها آكلين » .

وأنت ترى أن حقيقة التضمين عند الزمخشرى قائمة على اساس ضعيف اذ كيف يجوز ان يتضمن الفعل فى جملة واحدة معنيين ، ولم يفت هذا الاضطراب المعنوى على الاقدمين انفسهم ، فقد ذكر الشيخ سعد الدين التفتازانى فى حاشية الكشاف : فان قيل الفعل المذكور ان كان مستعملا فى معناه الحقيقى فلا دلالة على الفعل الآخر ، وان كان فى معنى الفعل الآخر فلا دلالة على معناه الحقيقى ، وان كان فيهما جميعاً لزم الجمع بين الحقيقة والمجاز .

والسيوطى فى الاشباه والنظائر يورد اقوالا متضاربة تظهر بوضوح مدى حيرة الاقدمين ازاء الاستعمالات والاساليب ، ومن أجل ذلك لم يتفقوا على حقيقة التضمين وطريقته ، فقد نقل قول ابن جنى فى الخصائص وهو : « اعلم أن الفعل اذا كان بمعنى فعل آخر ، وكان احدهما يتعدى بحرف ، والآخر بآخر ، فان العرب قد تتسع فتوقع احد الحرفين موقع صاحبه ايذاناً بانّ هذا الفعل فى معنى ذلك الآخر ، فلذلك جيء معه بالحرف المعتاد على ما هو فى معناه وذلك كقوله تعالى (أحِلَّ لكم ليلة الصيام الرفث الى نسائكم)[3] وأنت لا تقول رفثت الى المرأة ، وانما تقول رفثت بها او معها لكنه لما كان الرفث هنا فى معنى الافضاء وكنت تعدى أفضيت بـ (الى) كقولك : أفضيت الى المرأة ، جئت بالحرف (الى) مع الرفث ايذاناً واشعاراً أنه بمعناه »[4] .

---

(١) سورة الكهف ٢٨ .

(٢) سورة النساء ٢

(٣) السيوطى ، الاشباه والنظائر ١/١٠١

(٤) السيوطى ، الاشباه والنظائر ١/١٠٤

وقد وقع مجمع اللغة العربية فى الحيرة نفسها ولم يستطيعوا أن يدرسوا المشكلة دراسةً اسلوبية حديثة ، فقد اخذوا بالتضمين ، وقالوا بتضمين افعال كثيرة لمعانٍ كثيرة (١) .

وتزداد طائفة الافعال المتضمنة لمعان أخرى اذا ما فتشنا عن هذه الافعال فى كتب البلاغة .

فقد ذكر سعد الدين التفتازانى : ان الظهور بمعنى الزوال كما فى قول الحماسى :

وذلك عارٌ يا ابن ربطة ظاهر

وقول أبى ذؤيب : وتلك شكاة ظاهر عنك عارها ، أى زائل(٢) .

ولم يقتصر الأمر على تضمين فعل بمعنى فعل آخر ، وانما تعداه الى صيرورة فعل لازم فعلاً متعدياً او بالعكس .

ومن ذلك ما ذكره مقال مجمع اللغة العربية : « وجاز تضمين اللازم المتعدى مثل : فانه سفَّه نفسه أى اهلكها .

وذهب ابن هشام الى أبعد من هذا ، اذ قال : « وزعم قوم من المتأخرين منهم خطاب الماردينى أنه يجوز تضمين الفعل المتعدى لواحد معنى « صير » ويكون من باب « ظن » فأجاز « حفرت وسط الدار بئراً » أى صيرت . وقد اجاز « بنيت الدار مسجداً » ، وقطعت الثوب قميصاً ، وقطعت الجلد نعلاً » وجعل منه قول ابى الطيب :

فمضت وقد صبغ الحياء بياضها لونى كما صبغ اللجين العسجدا (٣)

وأنت ترى مما عرضنا أن مواضع التضمين واسعة ، وهذا الاتساع لا يدل

---

(١) دور الانعقاد الاول ٢٠٦

(٢) التفتازانى ، شروح التلخيص ٩٧/٤

(٣) السيوطى ، الاشباه والنظائر ١٠٣/١

مكتبتنا العربية

على سعة البحث فى الموضوع أو أنهم تعمقوا فى المشكلة فعرضوا لوجوهها جميعا ، وانما يدل على حيرتهم فى البحث عن المعانى والاساليب ، وربما كشف عن جمودهم ووقوفهم عند استعمالات لا يتعدونها الى غيرها ، وما خلا هذه الاستعمالات فهو بين أن يكون محمولاً على الخروج والخطأ والتجاوز ، او أنه داخل فى باب التضمين ان لم يجدوا وجهاً الى تخطئته وخروجه كأن يكون من كلام الله ، كقوله تعالى : «أفلم ييأس الذين آمنوا »(١) وقد ذكر المفسرون أن معناه : أفلم يعلم وقد قالوا : انها لغة النخع وهوازن ، وقال سحيم بن وثيل اليربوعى :

أقول لهم بالشعب اذ يأسرونني الم تيأسوا انى ابن فارس زهدم

وقد روى « الم تعلموا » على الوجه الصحيح ، كما ان ابن عباس قد قرأ : (أفلم يتبين الذين آمنوا) ، وقد انكر الفراء كون « ييأس » بمعنى يعلم •

وقد تبين ان التضمين أن تستعمل مادة فعلاً كان او اسماً او اداة محل غيره مع قرينة ، قولية او حالية ، تشير الى المعنى الذى استعمل ، وهذا الحد فى التضمين يثير الاستفسار عن المادة المستعملة من حيث الحقيقة والخروج عنها الى المجاز او الكتابة او الاستعارة •

لقد اختلف الاقدمون فى حقيقة التضمين من حيث كونه حقيقة او أنه خروج عن الحقيقة الى غيرها توسعاً ومجازاً ، ونستطيع أن تخلص الى مذاهب ثلاثة فى الموضوع : فالمذهب الاول يقرر أن المادة المتضمنة قد استخدمت على الوجه الحقيقى مع قطع الصلة بينها وبين الاصل • والمذهب الثانى يقرر أن المادة قد استخدمت على الوجه المجازى مع القرينة الدالة • والمذهب الثالث يجمع بين المذهبين فيقرر أن المادة مستخدمة على الحقيقة والمجاز فى آن واحد •

---

(٤) سورة الرعد ٣١

مكتبتنا العربية

اما المحدثون الذين أقروا التضمين ، فقد كانوا يريدون الاخذ به للحجة اليه ولأن متطلبات العصر تستدعى أن تسعف العربية بمادة جديدة ضخمة حتى تساير الحياة الحاضرة ومتطلباتها المعقدة الكثيرة • وقد فعل هذا مجمع اللغة العربية المصرى ، وقال بقياسية التضمين •

وتظهر هنا مسألة مهمة تتعلق بهذه « القياسية » التى يراد منها أن تستخدم استخداماً فنياً (Technique) فى الحياة العامة ، وما جد فيها من ضروب العلم التجريبى والنظرى •

واذا جاز هذا ، جاز ان نتوسع فى الموضوع وندخل هذا فى اللغة الادبية والاسلوب الفنى الذى يعتمد على خلق الصور الادبية التى تستمد عناصرها من خيال الاديب الذاتى ، ومما توحيه له بيئته ومجتمعه •

وينجم عن هذا أن لابد أن تؤرخ الالفاظ وتقيد بعصورها وبقائليها حاسبين للأقاليم والمجتمعات حسابها فى الاستعمالات وما شاع بينها من فنون القول ، وبهذا تفيد المعجمية العربية فائدة جليلة ، فيعاد بناء المعجمات المطولة على أساس جديد ، بمراعاة الظروف التأريخية وتطورها وانعكاس هذه الظروف المتطورة فى المادة اللغوية ، ومن هنا تأتى ضرورة القيام بمعجم تأريخى •